فكرة اللحظات وإشكالية النقد الأدبي، عند طه حسين في كتابه (مع المتنبي)

بقلم الأستاذ : عثمان بدري
معهد اللغة العربية وآدابها
- جامعة الجزائر -

يمثل الدكتور طه حسين (1889-1973) ظاهرة فكرية وأدبية ونقدية قائمة بذاتها ، في الأدب العربي الحديث، بوجه عام، وصوتا منفردا، في مجال النقد الجامعي الأكاديمي، بوجه خاص. فإلى هذا الإنسان المكافح المتحدي، الذي فقد نعمة البصر وعوضه الله بنعمة البصيرة المتوقدة، يعود الفضل في إزالة صدأ التخلف الحضاري الذي علق بالعقول والنفوس، وبالفرد والمجتمع على حد سواء. ولذلك فليس بكثير عليه أن يلقب، عن جدارة، بعميد الأدب العربي، بل لعله لم يأخذ إلى الان الموقع اللائق بجهوده في إثراء الحضارة الإنسانية على المستوى العالمي.

غير أن هذه الصورة الشرفة - التي مهما تفننا في رسمها لطه حسين فإنها لن تكافيء العطاء الذي قدمه - لا يجب أن تحجب عنا "هنات" أو "كبوات" أو "نبوات" المتميزين، لأنهم - بالنهاية - بشر يصيبون ويخطئون، يعلمون أشياء ويخونهم علمهم أو إحساسهم بالتفرق والتميز: في كثير من الأشياء.

وفي هذا السياق تأتي إشكالية المهنج النقدي الذي ارتضاه الدكتور طه حسين لنفسه في كل أعماله النقدية التي تزخر بها الجامعات والمكتبات العربية، وربما العالمية. فمن يتأمل كل الكتب النقدية لطه حسين، ويوازن فيما بينها، يستطيع أن يتأكر أن المفاهيم الأدبية النقدية والآليات المنهجية عنده تعتمد اعتمادا كليا على القرائن التاريخية والإجتماعية والنفسية والحضارية، متأثرا في ذلك بالمناهج العلمية العربية التي كانت سائدة في فرنسا، في القرن التاسع عشر بوجه عام، ومتأثرا بالمنهج النقدي التاريخي والإجتماعي، الذي أرسى دعائمه مجموعة من المفكرين النقاد الوضعيين، لعل من أبرزهم : " سانت بيف" (SAINT BEUVE) (1804-1869) و"برونتيير" F" BRUNETIERE" (1849 -1906) و"هيبوليت تين" (H. TAINE) (1828 - 1893) بوجه خاص. فقد طبق هذا المنهج الإجتماعي، التاريخي، النفسي، الفيلولوجي، في أغلب كتبه النقدية، "مع أبي العلاء في سجنه" "من حديث الشعر والنشر"، "حديث

الأربعاء"، وقبل كل ذلك في : "في الأدب الجاهلي"، إلا أن الكتاب الذي يعد تتويجا هذا المنهج عند طه حسين، هو كتابه "مع المتنبي"، والملاحظ بداية العنوان نفسه لا يحيل على أي شيء له علاقة بشعر المتنبي أن بفن المتنبي، كما أن التركيب اللغوي للعنوان يقوم على المصاحبة والمشاركة، مما يجعلنا نستنتج أن كتاب : "مع المتنبي" أقرب ما يكون إلى " السيرة الذاتية المشتركة، بين طه حسين وبين المتنبي، منه إلى النقد الأدبي أو الدراسة الأدبية. فإن تركنا هذا المؤشر المفتاحي العام، إلى دراسة الكتاب من الداخل، فسنجد أن الكتاب كله يتكون من 377 ص، موزعة بمنهجية متوالية، تشبه كثيرا ما يعرف ب : " التسلسل الكرونولوجي" في علم التاريخ، وهي :

1 - الكتاب الأول : صبي المتنبي وشبابه.

2 - الكتاب الثاني : في ظل الأمراء.

3 - الكتاب الثالث : في ظل سيف الدولة.

4 - الكتاب الرابع : في ظل كافور.

5 - الكتاب الخامس : غنيمة الإياب

وكما هو واضح فإن المنظور التاريخي هو الإطار الذي ينتظم كل هذه العناوين التاريخية الفرعية. والواقع أن المتأمل في هذه الدراسة القيمة، وهو مأخوذ بسحر أسلوبها العذب الرقراق، وبطريقة العرض والتحليل والتعليل والإستنتاج، لا يشك لحظة واحدة في أنها قد صورت المتنبي تصويرا تحليليا دقيقا، يكاد يجعله شخصا ماثلا أمام أعيننا، في صباه وفي شبابه وفي حله وترحاله، في اظمئنانه وهدوئه - وما أقله - وفي اضطرابه وحزنه - وما أكثره -، ونحن إذ نلاحظ ما عاناه الدكتور طه حسين، من جهد في تتبع وتحليل وتمحيص المعطيات والقرائن المادية والمعنوية المتنوعة التي تتكامل جميعها لتفسير شخصية المتنبي و (بيئاته) ومراحل حياته وعصره، نكبر في الدكتور طه حسين، إطمئنانه لمنهجه وتمسكه به واستعداده للدفاع عنه، بنفس القدر الذي نختلف فيه معه، حول عدم جدواه في دراسة الأدب ونقده أو حتى في دراسة شخصيات الأدباء والشعراء.

إلا أن الدكتور طه حسين يشفي غليلنا وينتصر للأدب والشعر، بعد أن كان منتصرا للمتنبي في ظل بيئته وعصره وملابسات حياته، فما نكاد نفرغ من قراءة الكتاب، حتى نفاجأ باعتراف صريح ومؤكد للدكتور طه حسين، مؤداه أن الكتاب الذي قدمه بين أيدينا، لا يصور حياة المتنبي من شعره، قدر ما يصور «لحظـات» من حياته هو أثناء انشغاله بالمتنبي يقول الدكتور طه حسين مؤكدا على فكرة «الحظـات» هذه : ((وإنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صور شيئا، فهو خليق أن يصورني أنا في بعض لحظات الحياة، أثناء الصيف الماضي، أكثر مما يصور المتنبي. وإنه لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ أو بالعواطف والخواطر التي يثيرها فيه ما قرأ، فأملى هذا أو سجله في كتاب، ظن أنه صور الشاعر كما كان، أو درسه كما ينبغي أن يدرس، على حين أن لم يصور إلا نفسه))(1) بل يذهب في هذا الإعتراف إلى حد يقوض المنهج النقدي الإجتماعي، التأثيري، الذي طبقه في كل أعماله النقدية، فيقول : ((وأكثر من هذا أني أخذت أرى أياما ما أظن إلا أن كثيرا من الناس سيضيقون به، ولعلهم زن ينكروه على. وقد ضقت به أنا وأنكرته على نفسي، ولكني لم أزد إلا إمعانا فيه واطمئنانا إليه، وتعجبا من أني قد إنتطرت هذه السن وهذا الطور من أطوار الحياة، قبل زن أفطن له أو أطيل التفكير فيه، وهو أن شعرالمتنبي لا يصور المتنبي، وأن شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويرا كاملا... وإنما أريد أن ألفتك إلى شيء يسير، وهو ديوان المتنبي إن صور شيئا فإنما يصور لحظات من حياة المتنبي... كما أن هذا الكتاب الذي بين يديك إن صور شيئا فإنما يصور لحظات من حياتي أنا... فكما أنك لا تستطيع أن تزعم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لي تطابق الأصل وتوافقه، بل لا تستطيع أن تزعم أنك قادر على أن تستخرج من كتبي كلها صورة صادقة لي، تطابق الأصل وتوافقه، فأنت كذلك عاجز عن أن تستخرج من ديوان المتنبي، صورة صادقة تلائم حياة المتنبي كما كانت في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة... وإذن فقد يكون من الخير أن نقتصد، وألا نتشدد في هذه النظرية التي يحبها المحدثون ويشغفون بها، وهي أن الشعر مرآة الشاعر، وأن الأدب مرآة الأديب... : إن نقد الناقد إنما يصور لحظات من حياته قد شغل فيها بلحظات من حياة الشاعر أو الأديب الذي عنى بدراسته.))(2).

إن هذه النتيجة النقدية الخطيرة التي إنتهى إليها طه حسين، في هذا الكتاب، تقوض النظرية النقدية التي تقوم - في جوهرها - على العناصر الثلاثة المعروفة عند النقاد الوضعيين وهي : (البيئة - العصر -الإنسان) وهي العناصر التي كونت المنهج التاريخي والإجتماعي من جهة، كما تقوض من جهة ثانية، النظرية التأثرية التي بدأت تفقد أصالتها الأدبية وأهميتها النقدية الفنية بعد إنقطاع صيت الأدباء والنقاد الرومانتيكيين الكبار مثل : ووردزوورث (1770 - 1850) وكولردج (1772 - 1834) وغيرهم، حيث تحول النقد الرمانتيكي، بعد عمالقة النظرية الرمنتيكية، إلى مقولات سيكولوجية تغيب العمل الفني أو - في أحسن الأحوال - تجعله مجرد مرآة عاكسة لشخصية الأديب ومنعكسة على سخصية القاريء، والسؤال الجدير بالطرح هو : إلى أي حد يبدو طه حسين محقا في ذلك؟ للإجابة عن هذا السؤال، يستحسن أن نلقي نظرة مركزة على المنهج النقدي الذي سبقت الإشارة إلى معالمه والذي طبقه طه حسين في جل دراسته الأدبية والنقدية.

لا شك أن المَعْلَمُ النقدي البارز في الدراسات النقدية للدكتور طه حسين، هو إلحاحه المستمر على أن الأدب "مرآة" للأديب، وأنه "مرآت صادقة"، لبيئته ومجتمعه وعصره، وفي هذا السياق يقول الدكتور طه حسين ، من يجعل الأدب تابعا لا متبوعا، : "إن الأدب ثمرة الحياة والحضارة، والنص الأدبي يتأثر بمؤثرات قريبة وبعيدة، ونحن نحتاجون لذلك إلي دراسة الحياة العربية، العقلية والسياسة والإجتماعية، دراسة واسعة، فهناك تفاعل مستمر بين الأدب وسائر مظاهر الحياة" (3).

ومع أننا لا ننكر رقة ودقة الذوق الجمالي الرفيع للأدب عند الكتور طه حسين، ومع أننا لا ننكر مدى قدرته على الوعي بالخصائص الفنية للأدب بوجه عام، والشعر، بوجه خاص، كاللغة الشعرية والموسيقى الشعرية والصورة الشعرية، التي يمثل الشعر العربي القديم، أرقى نموذج لها، ولكن مشكلة الدكتور طه حسين هي أن اعتقاده بمرآوية الأدب، جعلته ما يكاد يلامس الخصائص الفنية المكونة لأديبه هذا النص أوذاك، حتى ينصرف عنها ويزهد القاريء فيها، متحولا ومحولا القاريء، إلى عرض وتحليل وتعليل الظروف الخارجية المتنوعة المحيطة بالنص، فكأنه - بذلك - يقوم مصادرة إرادة النصوص الأدبية التي لا تحدد - غالبا - بما يراد لها أو يراد منها خارجيا، بل لعل إرادة النصوص الأدبية عموما والنص الشعري، خصوصا، تمكن في مدى إختراقها للمحيط الخارجي

الواقعي المألوف. وبهذه الطريقة التي تطابق بين الأدب وبين الحياة، بدا لطه حسين أن جل الشعر الجاهلي ليس بشعر جاهلي، وإنما هو شعر منحول أو موضوع، قاله الرواة في العصر الأموي ونسبوه إلى الشعراء الجاهليين، لأنه لا يتطابق مع مواصفات الحياة الجاهلية، وقد فات الدكتور طه حسين أن طبيعة وخصائص ووظائف الشعر العربي الذي قيل في صدر الإسلام وفي عصر الدولة الأموية، بعد ذلك، مخالفا لطبيعة وخصائص ووظائف الشعر العربي الذي قيل قبل الإسلام، أي في العصر الجاهلي، الذي يقبله طه حسين كتاريخ وجغرافيا وحياة اجتماعية ويرفضه كأدب وشعر وذلك عندما يقول : "إنني لا أنكر الحياة الجاهلية، فلست أسلك إليها طريق أمريء القيس والنابغة والأعشى وزهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، لأني لا أثق بما ينسب إليهم"، ويقول في مكان آخر : "أما الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة، بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمتسلطة على الحياة العملية، وإذن فلن نجد شيئا من هذا في شعر أمريء القيس أو طرفة أو عنترة، أوليس عجبا أن يعجز الشعر الجاتهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين !"(4)، ولسنا ندري لماذا يصر طه حسين على استخلاص حياة الجاهليين من شعرهم، ثم ينكره إذا لم يجدها أو وجد فيها شيئا بسيطا لا يقنعه أو - بالأصح - لا يستجيب لمقدماته الكثيرة التي تلتئمها جميعا مقولة أساسية هي أن الشعر والحياة شيء واحد، وهي مقولة خاطئة، يرتب عليه طه حسين نتائج أكثر إمعانا في الخطأ، مع احترامنا وتقديرنا لهذا القطب الكبير، وذلك ما تجلى واضحا في كتابه : "في الأدب الجاهلي"، عندما رفض الشعر الجاهلي لأنه لا يبرهن على وجود حياة دينية، روحية للجاهليين، وبحث عنها في القرآن الكريم، ومن المؤكد أن طه حسين كان يفقه القرآن الكريم ويدرك أنه نسيج وحده بمبانيه ومعانيه، وأنه - فوق كل ذلك - وحي من لدن كحيم عليم، لم يأت لمخاطبة الجاهليين أو لمطابقة حياتهم، وإن حاجهم وتحداهم وفند إشراكهم وفساد معتقداتهم - على سذاجتها - وإنما هو رسالة دينية ودنيوية للعالمين كافة، ثم ألم يكن طه حسين - المفكر الليبرالي المعجب بالحضارة المادية الغربية القديمة والحديثة - على وعي بما أثر عن "المعلم الأول" أرسطو حين رأى بأن :"الحقيقة الشعرية أدل على الحقيقة وأدخل في بابها من الحقيقة التاريخية"(5).إن الشعر فن إبداعي غير ملزم بما ذهب إليه الناقد الفرنسي (سالت بيف) عندما قال : "إن عمل أي مبدع لا يفسر إلا بحياته"(6) وذلك لأن : "العلاقة بين الحياة الخاصة وبين العمل الأدبي ليست ببساطة العلاقة بين العلة والمعلول"(7).

وعلي هذا الأساس الذي تحول فيه الأدب إلى مجموعة "وثائق" بعضها تاريخي وبعضها إجتماعي وبعضها نفسي، درس الدكتور طه حسين شعر المتنبي في كتابه "مع المتنبي"، مطبقا عليه مغالطة سانت بيف، السابقة، تطبيقا أمينا، لايعنيه منه فن المتنبي الذي اختزل عبقرية الشعر العربي القديم في مجالات شعرية كثيرة، بقدر مايعنيه منه كونه -كما سبق- مجموعة وثائق تصور الحياة المضطربة لشخصية المتنبي، في سياق الإضطراب الإجتماعي والسياسي والإقتصادي والثقافي والحضاري العام، الذي شمل الحياة العربية في الفن الرابع الهجري، فبعد أن يستعرض الدكتور طه حسين مجمل الروايات والأخبار المتصلة بنسب المتنبي وبموقعه الإجتماعي البسيط، وبعد أن يورد مجموعة من الأشعار ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بحياة المتنبي، ينتهي من كل ذلك إلى نتيجة سيكولوجية، إجتماعية، في آن واحد، وهي أن شخصية المتنبي، سخصية "شاذة"، فيقول : "رأى نفسه فإذا الأمر ليس له فيه يد، وليس له عليه سلطان، ففكر تفكير الشاذ وعاش عيشةالشاذ"(8)، ويكرر الدكتور طه حسين هذا التفسير السيكولوجي مرات عديدة بالإعتماد على نثر إحدى روائع شعر المتنبي وإحدى ورائع الشعر العربي في باب الرثاء، وهي قصيدته الميمية التي يرثي فيها جدته، يقول طه حسين : "فاقرأ معي هذه الأبيات، ولكن قراءة الستأني المتمهل الذي لا يمر بالشعر مرا، والذي لا يشغله الجمال الفني عن التماس نفس الشاعر"(9) "هذا كله يكفيني لأقتنع بأن مولد المتنبي كان شاذا، وبأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها، ولم يستطع أن يلائم بين نفسه الشاذة وبين البيئة الكوفية التي كان يراد له أن يعيش فيها (10)".

إن النظرة المتفحصة في هذه الدراسة التي قدمها طه حسين عن المتنبي لتؤكد أنها لم تدرس في الشعر عند المتنبي لامن قريب ولا من بعيد، إنما لوت عنق هذا الشعر وحولته إلى وثيقة أو مجموعة وثائق، تتكامل فيما بينها حزئيا وكليا لترسم إطارا الأديب وناقد تشبع بنظريات التحليل النفسي، وتشبع بالمنهج التاريخي والإجتماعي، وتشبع بالنقد الذوقي والتأثري، وتشبع في حياته الخاصة والعامة بأشكال لا حصر لها من المعاناة المادية والمعنوية والإنسانية. وقد غزز فيه تحديه للحياة المريرة التي عانى ويلاتها وهو صبي بالبيت، فيافع بالكتاب، فشاب متقد الذهن مهمش من قبل الأهرين المتزمتين، اعتقادا راسخا بأن كل شيء في الحياة -بما في ذلك الأدب والشعر ومطلق

الفن – مختزل في شخصية الإنسان، وخصوصا إذا كانت تلك الشخصية من نوع المتنبي أو المعري، أو طه حسين، الذين ولدوا لزمان غير زمانهم ! فثمة إذن وجوه يمكن أن تعذر طه حسين فيما كان يذهب إليه في دراساته النقدية مؤكدا على أن ((الأدب مرآة والناقد مرآة)) والعملية كلها بجميع أطرافها لا تخرج عن ((رائي ومرئي)) و((عاكس ومنعكس))، كما يبدو ذلك في كتابه ((فصول في الأدب والنقد)) عندما يرى أن ((الناقد مرآة لقرائه كالأديب، والقراء مرآة للناقد كما أنهم مرآة الأديب أيضا، ولكن الناقد مرآة صافية واضحة جلية كأحسن ما يكون الصفاء والوضوح والجلاء، وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه، كما تعكس صورة الناقد))(11). إن المرآة عند طه حسين تبدو من أبرز اللوازم المتكررة لديه في كل أعماله النقدية، وربما كان لذلك علاقة بحرمانه من نعمة البصر أي أنه يضع نفسه في موقع المتحدي للمبصرين.

فمحور اهتمام طه حسين في النقد ليس هو الأدب والخصائص الفنية النوعية المكونة لأدبيته ولتقاليده، وإنما هو البحث عن حياة الشاعر من شعره، سواء أكان الطريق إلى ذلك هو آليات المنهج التاريخي، كالبحث عن الحوادث والأخبار المتصلة بحياة الشاعر في شعره، أو كان هو المنهج الإجتماعي الذي يؤكد على المؤثرات الخارجية التي تتصل بالبيئة في مستوياتها المتنوعة وتؤكد على موقع الأديب في تلك البيئة، أو كان هو آليات المنهج السيكولوجي، أو كان هو آليات النقاد المتأثرين الإنطباعيين. وقد طبق طه حسين هذا الإهتمام المركزي عنده وفقا لهذه الآليات بمستوياتها متفاوتة في كتبه النقدية، ولكنها تجلت على نحو متكامل في كتابه ((مع المتنبي) الذي يذل ليه الدكتور طه حسين جهدا ذهنيا مضنيا، يبدو فيه متمسكا بمنهجه معتقدا بجدواه في الدراسة الأدبية الجادة. ولكن مهلا...فإن للدكتور طه حسين – كما مربنا – موقفا نقديا جريئا يقوض النظرية النقدية التي توخى تطبيقها على الشعر العربي، في دراساته النقدية المتنوعة، معتمدا آليات المنهج النقدي التاريخي والإجتماعي حينا(12)وآليات منهج التحليل النفسي(13)، والمنهج البيوقرافي(14)، حينا آخر، ويتمثل هذا الموقف النقدي الذي يمكن وصفه بلحظة التنوير والمكاشفة الفكرية، في سخط الدكتور طه حسين على تلك النظرية التي مؤداها "أن الشعر مرآة الشاعر وأن الأدب مرآة الأديب"بوجه عام، وفي سخطه على كتابه : "مع المتنبي"، بوجه خاص(15)، ولا يكتفي الدكتور طه حسين بعدم الإطمئنان لهذه النظرية حينا والسخط عليها حينا آخر، وإنما هو يفسر ذلك تفسيرا طريفا ودقيقا وهو أن الأدب والشعر وكل ماهو إبداع فني ليس إلا «لحظة» أو

«لحظات» "، ومن ثمة، فعلاقة حياة المتنبي أو غيره بشعره، ليس ت علاقة الأصل بصورة مأخوذة له، وإنما علاقتها به إنما هي علاقة بلحظات منفردة، مفلتة من الزمن التاريخي الواقائعي، بل لعلها "مفارقة"(16) له في كل شيء، وإذا كان ذلك كذلك على مستوى المبدع، فيجب أن يكون الأمر كذلك أيضا على مستوى المتلقي، خصوصا المتلقي النوعي الذي عادة ما يوصف بالناقد.

وقد يرى البعض ممن يحلو لهم المنطق والتمنطق أن الدكتور طه حسين متناقض مع نفسه، وأن فكرة "اللحظـات" عنده لا تحتمل هذا التفسير التأويلي الذي – ربما – لم يقصد إليه لا المتنبي في شعره ولا معايشة طه حسين لذلك الشعر. والواقع أننا إذا سلمنا – ظاهريا – بذلك فيجب أن نضع الأمور في إطارها المناسب – ولا أقول الصحيح –، والإطار المناسب هو أن الدكتور طه حسين لم يكن متناقضا ولا متراجعا، بقدر ما كان ناقدا متطورا مجددا منسجما مع إيقاع العصر ومتغيراته، فلقد كان مسايرا للعصر متمثلا له، بل كان سباقا لعصره على مستوى بيئته ومجتمعه وأمته، حين أدخل إلى النقد العربي تلك المناهج النقدية العلمية الحديثة التي كانت تنبعث من أرجاء "الكوليج دو فرانس" و "كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بالسوربون ، في وقت كان فيه النقد العربي مجرد شقشقة لفظية تردد صيغا جاهزة جامدة، مأثورة عن النقاد القدامى، كاللفظ والمعنى، والطبع والصنعة، والحقيقة والمجاز...الخ وبقدرما كان كذلك عبر مساره النقدي الطويل، بقدر ما كان أكثر تطورا وتجديدا وانسجاما مع النفس ومع حس العصر، في هذا الموقف الإندهاشي الذي أثبته بشكل مؤسس ومقصود في نهاية كتابه " مع المتنـبي"، والذي نجد له مؤشرا آخرا في كتابه "فصول في الأدب والنقد" إذ يقول في معرض نقده لكتاب ذلك الأديب والناقد العصامي العملاق، الأستاذ عباس محمود العقاد (1889 -1964) رحمة الله عليه – بعنوان : "رجعة أبي العلاء " : ((فمن أعسر الأشياء وأبعدها عن متناول الأديب، مهما يكن دكي القلب، ناقد البصيرة، أن يبلغ من تصوير الحقيقة التاريخية... إن أقل الناس علما بالتاريخ الأدبي يعرفون أن كثيرا من المؤرخين ربما خيل إليهم أنهم يصورون هذا الكاتب أوذاك، أو هذا المفكر أو ذاك، ولكنهم في حقيقة الأمر لا يصورون إلا أنفسهم، يعكسون أنفسهم على رجال التاريخ، يفهمون النصوص الأدبية كما يستطعون وكما تريد طبائعهم وأمزجهم، لا كما أراد الأدباء والمفكرون الذين أملوا هذه النصوص أو كتبوها(17).

إن هذا التحول الخطير في المسار النقدي للدكتور طه حسين، كان نتيجة وعيه المباشر أو غير المباشر، بالمتغيرات الجديدة التي طرأت على مفهوم الأدب ووظيفته أولا، وعلى مفهوم العملية النقدية ووظيفتها، تبعا لذلك، ثانيا، في العقد الثاني من القرن العشرين، بظهور ما يعرف بـ : "النقد الجديد"(18)، بأمريكا وإنجلترا، وبظهور "الشكلانيين الروس"(19) (Les Formalist Russes) وبتطور واساع مجال الثورة اللغوية واللسانية الجبارة التي كان رائدها العالم السويسري" فردينا نددوسو سير" (1857-1913) (Ferdinand De Saussure) ، تتمثل الظاهرة الأدبية بوصفها منظومة من الأنساق اللغوية الرمزية التي يتحول فيها الواقع الذاتي والموضوعي إلى "رؤية فنية"، لا تكافيء إلا ذاتها داخل النص الأدبي الإبداعي(20).

وسواء كان طه حسين قد تأثر بهذا الوعي الأدبي والنقدي الجديد، أو، لم يكن متأثرا به، وإنما أدرك بنفسه أن قيمة العمل الأدبي قد ضاعت في خضم القرائن التاريخية والإجتماعية والنفسية، فالذي لا شك فيه هو أن رؤية العصر المفهوم الأدب والنقد واللغة، قد تغيرت تغيرا جذريا، إهتزت فيه المناهج النقدية التقليدية التي أثمرها التفكير العلمي والفلسفي الوضعي، وبالطبع فإن أكثر المناهج التي عصفت بها رياح التغيير الجديد، كانت هي المنهج التاريخي والإجتماعي، والمنهج النفسي، وذلك لأنها مناهج مؤسسة - في الأصل - من خارج الأدب، ومن ثمة، فهي بقدر ما عمقت وعي القارىء الظروف الخارجية المحيطة بالعمل الأدبي، وبقدرما فتحت من مجالات عديدة كانت مجهولة فيما يتصل بسيكولوجية المبدع والمتلقي، بقدما غيبت أدبية الأعمال الأدبية، أو حجمتها في أحسن الأحوال.

هل المهم - بعد كل هذا - هو أن الدكتور طه حسين قد أوتي من الثقة بالنفس - وهي قمة الشجاعة - ما يجعله يكتشف - فجأة - بأنه كان - في الواقع - أقرب إلى عالم الإجتماع وإلى المؤرخ وإلى المحلل النفسي، منه إلى ناقد الأدب ومحلله؟ قد يكون ذلك وقد لا يكون، إنما الأهم هو الإشكالية النقدية التي يتضمنها هذا الموقف الصادر عن عملاق يدرك - تماما - أن الحكمة والشجاعة ليست في الإصرار على الخطأ، الذي يبدو لبعض النفوس الضعيفة صوابا، بل في الإعتراف بالخطأ، وإمكانية البحث عن الصواب، وإذا أليس من الأولى والأنسب أن يكون موضوع النقد واهتمامات الناقد هي وصف وتحليل وتفسير وتأويل العمل الأدبي نفسه، بوصفه جهدا نوعيا خلاقا، بتحدد

من خلال الطريقة التي تؤدي بها اللغة الأدبية وظيفتها داخل القصيدة أو الرواية أو ما شئت، وذلك من أجل توليد " رؤية - رؤيا - أو رؤى" فنية مفتوحة على مستويات عديدة من المعاني والدلالات الإحتمالية، باعتبار أن الأدب - كل الأدب - هو فن المحتمل والحق أن هذا ما تكاد تجمع عليه كل الدراسات النقدية التطبيقية الحديثة، التي تؤكد على أن حدود التجربة الإبداعية هي حدود اللغة التي أنتجتها، إذ أن : ((اللغة هي ، وبالحرف الواحد مادة الأديب، ويمكن القول أن كل عمل أدبي هو مجرد انتقاء من لغة معينة))(21)، ولأن: ((الخطاب الأدبي صوغ للغة عن وعي وإدارك، إذ ليست اللغة فيه مجرد عبور الدلالات، وإنما هي غاية تستوقفنا لذاتها))(22)، ولذلك فالسؤال الجدير بالطرح، حقا، ليس هو ماذا صور المتنبي في شعره، وهل لشخصيته ومجتمعه وعصره حضور في شعره أم لا، وإنما هو كيف عبر المتنبي في شعره وفي سياق أية رؤية فنية عبر؟

مراجع البحث :

1 – مع المتنبي، طه حسين، دار المعارف بمصر، (د، ت) القاهرة، ص: 378.

2 – نفس المرجع السابق، ص : 378 - 379.

3 – في الأدب الجاهلي، د، طه حسين، دار المعارف بمصر ، القاهرة، ص : 70.

4 – نفسه، ص : 72 - 73.

5 – في نقد الشعر د. محمود الربيعي، دار المعارف بمصر، القاهرة 1973، ص:26.

6 – الفنان والإنسان، د. زكريا إبراهيم. ص : 36.

7 – نظرية الأدب، رينية ويلك، أوستن وارين، ترجمة : محي الدين صبحي، دمشق 1972، ص : 96.

8 – مع المتنبي (سابق) ص : 21.

9 – نفسه، ص : 22.

10 – نفسه، ص : 25.

11 – فصول في الأدب والنقد، طه حسين، (سابق) ص : 16.

12 – نظرية الأدب (سابق) ص : 119 - 140.

13 – نفس المرجع، ص : 101 -118.

14 – نفسه، ص : 93 - 100.

15 – مع المتنبي (سابق) ص : 373 - 381.

16 – مجلة البلاغة المقارنة ((ألف)) عـ : 4 ربيع 1984. الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ص : 33 - 52.

17 – فصول في الأدب والنقد (سابق) ص : 24.

18 – مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ديفيد ديتشز ترجمة، د. محمد يوسف نجم، دار صادرو بيروت 1967 ص : 433 - 491

19 - نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس) ترجمة، إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت - لبنان 1982، ص : 15 - 22 - 30- 67.

20 - نظرية الأدب (سابق) ص : 179 - 204.

- الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب عبد السلام المسدي ، تونس -ليبيا، 1977، ص : 84 - 121.

- مقالات نقدية، د، محمود الربيعي، مك : الشباب، القاهرة (د، ت) ص : 56-73.

- سيميائية النص الأدبي، أنور المرتجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 1987، ص : 22 - 41.

21 - نظرية الأدب (سابق) ص : 223.

22 ـ الأسلوبية والأسلوب (سابق) ص : 111.